الشيخ بدر الدين الحسني

٣

أتينا في القسم الأول من ترجمة شيخنا على وصف حياته عامة ودروسه الجمعية خاصة ونصف اليوم دروساً له في الحديث سعيت لديه . في قراءتها عليه . وحفظت لنفسي حق الاشتراط في تلك الدروس .

ذلك أن أقرأ عليه مشهورات كتب السنة : فأستعرض أحاديثها حديثا حديثا: قراءة حدر ومعارضة كما كان جبريل يعارض النبي (ص) القرآن في كل سنة مرة لينظر كل منهما ما عند الآخر . لا قراءة توسع في شرح مسائل العلوم وفروع الفقه وطرق استنباطها وجدال الفقهاء حولها مما نراه في كتب شراح الحديث . اللهم الا اذا سنح إشكال في الفاظ سند الحديث ، وأسماء رواته ، أو التباس في كلمات متنه ، أو أن يغمض المراد منه غموضا ناشئاً عن غرابة لغته ، أو إبهام في اسلوبه . فحينئذ يفسره لنا شيخنا أو نتصدى لمراجعة مظانه والتعليق عليه باوجز عبارة .

وكان الغرض من ذلك إحياء كتب السنة التي قلت العناية بها . ثم جمع ما تفرق فيها من أحاديث تضمنت مطالب سامية لها علاقة بحالتنا الاجتماعية الحاضرة ويكون شراح الحديث قد أهملوا التعليق عليها . واستخراج العبرة منها . او مروا في شرحها مراً خفيفاً: لضعف سندها عندهم . أو لضعف علاقتها بحالة الاجتماع في زمنهم . أو لسبب لا نعلمه : فان في تقييد أمثال هذه الأحاديث والتوسع في شرحها بحسب الزمان والمكان ما يكون مرشداً لنا في نهضتنا الجديدة فنستعين به على لم الشعث ورأب الصدع . ويكون لنا منه هداية تنقذنا من هذا التخبط الاجتماعي الذي نمن فيه . وقد أعيتنا الحيلة في التخلص منه . وقد اجابني الشيخ رحمه الله الى اقتراحي هذا . وأرادني على قراءة البخاري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قبل غيره فقلت له انني تلقيته عن شيخي « العلامة حسين الجسر الطرابلسي » مع شرحه للقسطلاني . ولكنني افتتح القراءة بصحيح مسلم .

ثم بدأنا بهذه الدراسة الشريفة (في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٦م) وكنا نقرأ في الاسبوع يومين واحيانا ثلاثة . ورمضان كله . وشاركني في هذه الدراسة قليل من الاخوان . اخص منهم بالذكر الشابين الفاضلين خليل بك مردم بك وسعيد افندي حمزة . وتوقف الكثيرون عن المشاركة . حتى إذا أتممت صحيح مسلم في سنة وشهر وابتدأت بسنن الترمذي ازدحم العلماء واهل الفضل على حلقة ذلك الدرس : أخص منهم بالذكر الاستاذين الجليلين الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب .

وكان السبب في هذا الاحجام ثم الاقدام ماذكره لي بعضهم من أن طلاب العلوم الدينية في دمشق ما اعتادوا قراءة كتب السنة على شيوخهم الا للتبرك . أما على هذه الطريقة التي سألتها شيخنا فقد رابهم أمرها . وتوقعوا انقطاعها بثورة لغط تقوم في وجهها . حتى إذا رأوا ثباتها . ولمسوا فائدتها . عادوا فاطمأنوا اليها . واقبلوا عليها .

وأتممت الترمذي في سنة وشهرين وبدأت مع الاخوان بسنن أبي داود فلم تكد تمر على قراءتنا بضعة اشهر ونبلغ باب (السهو في السجدتين) حتى عرض ما كانوا توقعوه لكن على شكل غير مباشر . وقد شرحناه في (مذكراتنا) شرحا وافيا . فكان ذلك حائلا دون إتمام هذه الدراسة النبيلة الغاية ولو تمت لكانت المثل الأعلى الذي يحتذي في غربلة جميع ما تركه لنا السلف من مصنفات وآثار . وكنت منصرفا في هذه الدراسة الى ضبط الاحاديث وشرح الغامض منها . أما التعاليق الحديثية التي بذكرها استاذنا بالمناسبات فقد كنا نلتقطها من فمه وندونها في مذكراتنا على حدة من ذلك :

١ — قوله : كل حديث فيه لفظ (الحميراء) مثل حديث (خذوا ثلثي دينكم عن هذه الحميراء) يعنون عائشة رضي الله عنها — فهو دليل على وضعه

٢ — غير البخاري ومسلم من كتب الحديث لا يسمى صحيحا . وتسميتهم للترمذي بالصحيح — كما هو مكتوب على ظهر النسخة المطبوعة التي نقرؤها — تسامح : إذ أن في الترمذي احاديث غير صحيحة .

٣ — حديث (توسلوا بجاهي الخ) قال شيخنا اشتهر على الالسنة وهو غير صحيح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٤ — حديث إن جبريل كان يدسّ حال البحر (وهو طينه الاسود) في فم فرعون مدافعةً له عن النطق بالشهادتين — استبعدته أنا فوافقني الشيخ قائلاً (الله أعلم بهذا الحديث) مشيراً بذلك الى وضعه . وإن قول الترمذي عنه (إنه حسن) هو باعتبار قواعد فن الحديث . أي إنه حسن باعتبار الرواية لا باعتبار الدراية

٥ — الطعن في أحد رواة الحديث لا يقتضي ضعف الحديث نفسه . هذا النسأي طعن في « أحمد بن صالح » شيخ البخاري وطعنه هذا لا يستلزم تضعيف الاحاديث التي خرجها البخاري عنه

٦ — بمناسبة حديث الأَمَة التي سألها صلى الله عليه وسلم « أين ربك ؟ » فأشارت أو قالت: « هو في السماء » فقال لسيدها : « هي مؤمنة أعتقها » — قال الشيخ مرّ عيسى عليه السلام برجل يصلي — وصنعته عمل البراذع — وهو يقول في سجوده : دلني يارب على حمارك لاصنع له بِرذعة من ذهب . فاعترضه عيسى . فاوحى الله اليه : دعه فانه مجدني بحسب عقله .

٧ — وسمعته مرة يروي عنه صلى الله عليه وسلم قوله « ألهوا والعبوا فإني اكره أن أرى في دينكم غلظة » والمراد باللهو واللعب المباحان شرعاً كما لا يخفى

٨ — وقوله صلى الله عليه وسلم « ما الميت في القبر إلا كالغريق المتغوّث ينتظر دعوة تلحقه من أب أو أم أو أخ أو صديق فاذا لحقته كانت أحب اليه من الدنيا وما فيها » رواه البيهقي عن ابن عباس .

هكذا سمعت الشيخ يقول « المتغوّث » من « التفعل » لكنني لم أجده في كتب اللغة وإنما هو « المغوّث » من « التفعيل » يقال غوّث الرجل اذا استغاث أو قال « واغوثاه » ولعل الشيخ قالها كذلك فأسات أنا سمعها .

إلى أمثال ذلك من التعليقات الحديثية المفيدة وهي قليلة في جنب ما عنينا به من ضبط أحاديث مسلم والترمذي . والتعليق عليها . واستخراج كنوز العبر الاجتماعية من ثناياها .

وكنا أحيانا نلمح في الحديث بصيصاً من معنى اجتماعي فنريد الشيخ على التوسع في بيانه فكان يتوقف ويشير الينا بالاكتفاء بما قال . وفي بعض الاحيان يسكت عن إجابتنا مهما اردناه على الكلام :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مرّ في حديث عائشة رضي الله عنها ان جبريل أراه صلى الله عليه وسلم صورتها في سَرَقة من حرير «أي في قطعة من جيد الحرير» فتساءلنا في الدرس عما إذا كان هذا الاثر يدل على جواز التصوير أو جواز أن يرى الرجل صورة من أراد خطبتها من النساء ؟ فاصبح التصوير حاجة من حاجات الاجتماع . فقال أحد الاخوان : مادام للرجل الحق ان يرى خطيبته نفسها فليس ثمّ حاجة الى رؤية صورتها . فرد عليه آخر بأنه قد يتفق ان يكون هو في بلد وهي في بلد آخر فيحمل اليه البريد صورتها الشمسية كما حمل جبريل صورة السيدة عائشة . جرى كل هذا بين رفاق الدرس وشيخنا ساكت . واردناه على أن يفيدنا ما عنده في هذا الموضوع فلم يرد علينا وظل ساكتا .

واستدرجته مرة الى موضوع طريف فأفتى به أو كاد ثم عاد الى الاعتصام بالسكوت : ذلك أنه مرّ معنا في حديث مسلم قوله « لم أصلي فأتيمم » فجعلت « لم » جازمة . ثم اشكل عليّ رفع « اصلي » معها . فقال الشيخ هي للاستفهام لا للجزم . و « أصلي » مستأنف مرفوع .

فاهتبلت هذه الفرصة وقلت للاستاذ : انهم اصطلحوا اليوم على علامات يرقمونها خلال أسطر الكتابة ويسمونها علامات التنقيط : وهي نقطة ، ونقطتان ، وواو صغيرة كالضمة . وخط صغير أفقي . وخط آخر عمودي تحته نقطة . وعلامة متمعجة حلزونية الشكل تحتها نقطة وغير ذلك مما يستعملونه في مقامات التعجب والاستفهام والتفسير والوقف القصير والوقف الطويل الى غير ذلك . فقول الحديث هنا « لم أصلي فأتيمم » لو وضعت علامة الاستفهام (؟) بعد (لِمَ) لقرئت استفهاماً ولفهم المعنى من فوره ، فهل يجوز لنا استعمال هذه الاصطلاحات الجديدة في كتاباتنا كما استعمل السلف ما احدثوه من النقط والشكل للحاجة اليهما وكلها من بابة واحدة ؟ قال يجوز . قلت ونستعملها في كتب الحديث ؟ قال يجوز . قلت وفي القرآن ؟ قال : يجوز « يعني كما جاز فيه النقط والشكل المستحدثان » . ثم سألني ولكن مابال هذه الاصطلاحات لم توجد في كتاب مسلم المطبوع الذي نقرؤه ؟ قلت لأنه كتاب ديني وطابعوه يخشون إنكار العلماء فلم يضعوا فيه هذه العلامات . واجتهدت أن لا أسميها له بأسمائها الاعجمية : Point, tiret, virgule . ولكن الشيخ أدرك أن في الامر سراً وأنني أريد أن أتلطف بأخذ فتوى منه بجواز أشياء لا يعرفها السلف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فتبسم وضرب على كتفي وقال : « الله يصلحك » واعتصمَ بالسكوت ؛ ولم يرد أن يفتي بجواز استعمال (أصول التنقيط الحديث) في كتب الدين خشية أن يكون فيها ما يمس سلامة الدين أو كرامته تورعاً منه وتجنباً للشبهة وتمسكاً بما كان عليه السلف .

وكان شديد الغلوّ في المحافظة على الدين حريصاً على أن لا يدخل فيه ما ليس منه ، فقد مرَّ معنا في الحديث : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تشييد المساجد ، وفسر ابن عباس التشييد بالزخرفة . فقال بعض الاخوان : المرادُ بالتشييد رفع بناء المساجد . فقلتُ : الصحيح ما قاله ابن عباس ؛ فيكون التشييد من (الشِيد) و (الشيد) الجص وهو يستعملُ عادةً في تزيين البناء وزخرفة سقوفه وجدرانه . أما رفعُ بناء المساجد فأمرٌ مطلوب فيها ؛ وذلك لكي يتخللها الهواء ويسهل التنفس على المصلين . فابتسمَ الشيخ ، وقال لي : وما دخلُ الهواء والتنفس في الدين والتشريع ؟ وعجبٌ من قولي أشدّ العجب .

* * *

أما أن للشيخ علاقة وثيقة بعلوم اللغة وآدابها ، فهذا يلحظه منه كل من ثافنه ، لكنه رحمه الله ، ما كان يكثر من الاستشهاد بنصوص الادباء ولا بأقوال الشعراء ، لما يقع فيها أحياناً من اللغو وعبث القول .

وقد سمعته مرة ينشد بنغمةٍ حزينة قولَ الشاعر :

أيا نجد ! لو كان النوى منك مرةً ... صبرنا ، ولكنَّ النوى منك دائمُ

وأنشدني مرة أخرى :

صديقُ الصدق في الدنيا قليل ... فمنْ لك إنْ ظفرتَ به فمنْ لك ؟

لحاجتهِ بودّك كل شخصٍ ... وذاك إذا قضاها منك ملَّكْ

صديقُك من إذا ما كنتَ منهُ ... طلبتَ الروحَ بالتمليك ملَّكْ

وجاء ذكرُ طرابلس وليمونها يوماً ، فسألني : ما معنى قولهم (من لم يجيء بشراب الليمون يجيء بشوكه وحطبه) ؟ فتجاهلتُ الجواب ، أو أنني لم أحسنه . ففسرهُ لي قائلا : إن المرادَ بشوكه وحطبه قضبانه ، والمعنى : من لم يجيء باللين يجيء بالشدّة . وهذا على حدّ قول زهير :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن بعض أطراف الزجاج فانه يطيع العوالي ركبت كل لهذم

وأنشدني يوماً قول الراجز :

التمر والسمن جميعاً والأقط الحيس إلا أنه لم يختلط

فاعترضت بأن طعام (الحيس) هو الذي يختلط من هذه الاشياء لا الذي لم يختلط منها . ثم قلت للشيخ : لعل صواب الرجز هكذا :

التمر والسمن جميعاً والأقط الحيس ، لكن شرطه أن يختلط

فسكت الشيخ ولم يجبني . ثم راجعت الصحاح واللسان والتاج في مادة (حيس) فاذا الرجز كما قال شيخنا لكن شطره الاول هكذا :

(التمر والسمن معاً ثم الاقط)

وربما كانت رواية شيخنا « التمر والسمن جميعاً والاقط » أرشق تعبيراً وأحسن سبكاً من رواية أصحاب المعاجم . ولم يتعرض أحد منهم للاشكال الذي أوردته على شيخنا إلا صاحب التاج : فقد ذكره وعزاه الى شيخه الذي قال : إن الفقهاء والمحدثين ومنهم الزرقاني والطيبي ينشدونه هكذا (أي كما ينشده شيخنا) ثم قال : إن الله فتح علي بحل لهذا الاشكال ؛ وذكر الحل لكنه لم يعجبني .

وكثيراً ما تمثل شيخنا حين يراد منه (الاجازة) بقول القائل :

(ولست بأهل أن أجاز فكيف أن أجيز ولكن الحقائق قد تخفى)

وقد أجازني وتمثل به في كتاب الاجازة الذي أعطانيه . ويظهر من ثبت إجازته أن أول شيوخه الذين أجازوه هو العلامة (ابراهيم السقا) وهو من شيوخ الازهر الذين أجازوا والدي أيضاً (مصطفى بن احمد المغربي) سنة ١٢٦٩ هـ

ونقلت من مذكرات شاعرنا الكبير خليل بك مردم بك — وكان زميلي في قراءة صحيح مسلم على الشيخ كما قلت آنفا — خبراً يتعلق بي وقد أنسيته أنا . وهو أنني قرأت على الشيخ يوماً عدة أحاديث بدل ظاهرها على عدم إيمان أبي طالب . فاطبقت الكتاب وسألت الشيخ عن حقيقة ذلك . وأبيت إلا كلمة صريحة منه يطمئن اليها القلب في إيمان عم النبي (ص) فامتعض الشيخ من إلحاحي وقال: سبحان الله يا شيخ عبد القادر أنت كاتب واديب : أما سمعت ما قاله أبو طالب مخاطبا النبي صلى الله عليه وسلم :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ودعوتني وزعمت انك ناصح ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

فانت تسمع أبا طالب يقول لابن اخيه (صدقت) ثم تستشكل ؟ فسررت بعلم الله بجواب شيخنا كما أعجبني استظهاره للشعر القديم وحسن الاستشهاد به حين الحاجة اليه .

ولا عجب أن يكون شيخنا لغويًا : فانه لم يقم محدث في الاسلام الا وهو لغوي ولا لغوي الا وهو محدث : لأن المحدث لا يفهم احاديث الرسول (ص) الا بعد فهم لغتها وما اكثر تلك الاحاديث وما اكثر غريب اللغة فيها . كما أن اللغوي لا يرسخ قدمه في علم اللغة الا بعد استظهار الجم الكثير من أحاديث النبي (ص) لتكون له عدة في الاستشهاد على ما هو بسبيله من تحقيق كلمات اللغة . فاللغوي المتقن محدث . والمحدث المتقن لغوي . وشيخنا الذي حفظ على اقل تقدير خمسة آلاف حديث يحفظ على أقل تقدير ألف كلمة من غريب اللغة .

فالقارئ يرى أن بين شيخنا البدر وبين مجمعنا العلمي اللغوي لحمة نسب . ووشائج متينة في نشر لغة العرب : هو بواسطة دروسه الحديثية المشهورة . ونحن بوسائطنا المجمعية المعروفة أذكر انه زارني يوماً في المدرسة العادلية (وهي دار المجمع العلمي) فاجلسته في صحن المدرسة خشية أن يرى في ردهتها صور أعضاء المجمع معلقة على جدرانها فيمتنع عن الدخول كما هي عادته . وبعد ان استقر به المجلس سألني : وماذا تصنعون هنا ؟ قلت اننا يا مولانا نشتغل في خدمة اللغة العربية ونشرها وفي ذلك خدمة للدين ونشره . واذا بأحد تلاميذه (اللطفاء) من ورائه ينبهه الى التماثيل الحجرية المنصوبة في احدى جوانب دار المجمع ، فقال الشيخ : وما هذه التماثيل ؟ واشار اليها باصبعه . فشعرت بخطورة الموقف . وبصعوبة الاعتذار عن تصفيف تماثيل في صحن مدرسة اسلامية . غير ان الله ألهمني جوابا تضمن حقيقة لكنها ويا للاسف منسية غير ملحوظة : فقلت ان هذه التماثيل تحشر عادة في المتاحف ودور الآثار للاستدلال بها على تاريخ قرون الجاهلية الاولى واحوال اهلها . ويدخل في ذلك عبادة تلك الامم للتماثيل الحجرية وارسال الرسل لاجل انقاذهم من تلك العبادة الوثنية . كما كان شأن نبينا صلى الله عليه وسلم مذ أنقذ أهل الجاهلية من الشرك والضلال . وصقل نفوسهم بصقال التوحيد . واننا نرى الناس اليوم قد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أغفلوا دراسة هذه الناحية من التاريخ النافع ونسوا نعمة الله عليهم بالبعثة المحمدية فاذا رأوا هذه التماثيل ذكروا النعمة وحمدوا الله عليها .

فابتسم الشيخ وقال لي ما قاله عمر بن الخطاب لمعاوية مذ اعتذر له عن اتخاذ الشارات الحسنة في مواكب ركوبه العامة .

رحم الله شيخنا البدر . وأثابه عن حياته الصالحة بأجزل الاجر ؟

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net